اللغة العربية وآدابها
بين
الإنسانية والعالمية

د. على احمد المرنيى

أدبنا العربى أدب عالمى رائد وذلك لاتجاهه الإنسانى . وتفوق اللغة العربية ، التى حملته فى أمانة وصدق ، عبر الأجيال فهى من اللغات العالمية الواسعة الانتشار ، وليست لغة قومية ضيقة ، وإنما هى فى طبيعة تكوينها لغة إنسانية ، اكتسبت خلال العصور . المقدرة على أن تكون أداة اتصال بين الإنسان وأخيه الإنسان ووسيلة قوية لنشر روح الإنسانية بين الناس .

فهى لغة الدين حيث يقطن المسلمون على ظهر الأرض .

وهى لغة العرب حيث يقطن العرب من الخليج شرقا ... إلى المحيط غربا ...

انتقلت من قلب الجزيرة العربية ، تحمل السمات الإنسانية فى ضـــوء القرآن الكريم والسنة النبوية ... لتكون لغة الشام والعراق . ومصر ، والسودان وليبيا وتونس والجزائر ، والمغرب ثم عبرت جبل طارق حيث الأندلس قديما فكانت لغة الحديث والعلم والأدب أكثر من ثمانية قرون ، ولغة إقليم (صقلية) جنوب ايطاليا أكثر من أربعة قرون ، ولغة الدولة الغزنوية فى الهند وأفغانستان والدولة السامانية ، فيما وراء النهر أكثر من ثلاثة قرون من الزمان لغة الحديث والعلم والثقافة .

فقد حفظ لها الدين الإســـلامى البقاء والخلود ، رغم تقلص ظلها فى الاندلس وما وراء النهر ؛ وصقلية ، والهند . وأفغانستان كلغة حديث وتخاطب ... ... وبقيت لغة التعبد والديانة الإسلامية لمن دان من أهلها بالإسلام .

وارتباط (الخط العربى) بالدين الإسلامى جعل كثيرا من الأمم التى تدين بالإسلام تتخذ الخط العربى وحروف الهجاء العربية فى كتابتها .

كالمتحدثين باللغة الحبشية فى (هرر) من المسلمين فإنهم يكتبون الحبشية بالخط العربى (١) .

وقد ظهر تأثيرها فى كثير من لغات العالم .. فعلى سبيل المثال فاكهة (الموز) عرفها العرب فى الأندلس . فأطلقوا عليهـــا اسم (البنان) أى الأصبع . فأطلق عليها هذا الاسم فى كل اللغات الأوربية .

وقد أخذت بعض اللغات الشرقية من العربية كثيرا من الألفاظ ، بيد أنها لم تستطع النطق بالحروف العربية ، التى ليست فى لغتها فالفرس لم ينطقوا بهذه الحروف (ث ح ص ض ظ ع ق) .. والترك نطقوا من هذه (ق) لأنها بين (العين والضاد)

والحقيقة أن الفيصل فى قيمة اللغة العربية هو (تراثها) وما تحمله من حضارة وعلم ؛ فقد أقبلت الأمم قديما . على تعلم اللغة العربية ، لما حوت من علم وفن . فدرست العلوم والمعارف العربية . فى جامعات أوربا .. حقبا طويلة الأمر الذى حدا بالدول الكبرى . . كبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتى لأن تبنى الجمعيات الآسيوية فى عواصمها ومدنها الكبرى . كالجمعية الآسيوية بلندن ١٧٢٣ م . . والجمعية الآسيوية بباريس ١٨٢٠ م ... وكذا معاهد

---

(١) ص ١١ اللغة العربية عبر القرون ... د محمود حجازى .

اللغات الشرقية وقد تناثرت على رقعة واسعة من الأرض فظهرت فى روما وصقلية ، ومدريد ، وموسكو ، وطشقند بالاتحادالسوفيتى، وتقيم المؤتمرات العلمية ... فيظهر عامل الاستشراق ... ويعترف كثير من المستشرقين بأثر اللغة العربية المباشر ، وغير المباشر فى ثقافة العالم ... يقول اسكندر فون هوميلد (إن العرب قد نشروا مع دينهم لغتهم المثقلة بتراث خالد من الشعر .. لم تبل جدته ، ولم تنزعزع أصوله)(١)

ويقول : ليبرى (صان العرب نهضة الأدب فى أوربا مدة طويلة) وقد أخذت عنها (اللغة الألمانية) الإعراب ، وهو تغيير آخر الكلمة ، باختلاف العوامل الداخلة عليها (— الرفع — النصب — الجر — السكون)

وكما تأثرت الألمانية بالإعراب . تأثرت اللغة الحبشية أيضا والإعراب يساعد على تفهم المعنى ؛ والتمييز بين الأساليب .

وقد أثبت التاريخ فوق اللغة العربية ، وتقدمها . وتأثيرها فى الحضارة العالمية .

فقد كانت الأندلس . حاضرة أوربا ... يفد إليها أبناؤها ، لينهلوا من موارد علمها . ورحيق آدابها .

حتى بعد سقوطها فى أيدى الفرنجة ... فقد عاشت أوربا على زادها لما خلفت من تراث لا يبلى ، ولا يزال زادا لاسبانيا حتى الآن .

والدليل على ذلك ... ان السلطان (يعقوب المرينى)(٢) حاكم المغرب

---

(١) ص ٩٠ فصول مقارنة بين أدبى الشرق والغرب ... د . جمال الدين الرمادى .

(٢) تاريخ الجزائر ٢/٧١ والنبوغ المغربى ١/١٨٦

قد اشترط على ملك أسبانيا (شانسو الرابع) فى معاهدة الصلح التى عقدها معه أن يعيد إليه جميع المخطوطات العربية ، التى حازها أيام استيلائه على (قرطبة) و (اشبيلية) ... فبعث إليه (شانسو) ثلاثة عشر حملا من الكتب . وزعها السلطان يعقوب على خزائن المغرب ... ومع ذلك فقد بقى الكثير ... فلا زالت مكتبة (سكوريال) فى أسبانيا تعج بالمخطوطات العربية والمؤلفات فى شتى أنواع المعرفة .

فقد عثر فى وقت قريب ... المستشرق البرفسور (بال كاولى) (١) على مسرحيات عن أصل عربى (لمحمد بن دانيال الموصلى) فى عصر الظاهر بيبرس فى القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد ذكر المستشرقون (جورج جاكوب) محتويات هذه التمثيليات فى كتابه (تاريخ مسرح تمثيل الظل) ...

إن الثقافة العربية ... كانت واسعة العطاء فالمكتبة الحديثة فى التنظيم ، والتنسيق ، والتبويب ... والإشراف ، استولت على إعجاب المؤرخ (عبد الرحمن الجبرتى) حين رأى هذه المكتبة أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٨٩٧م — ١٢١٣ هـ وقد وصفها معجباً بها ... فقال : —

(فيها جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون ، يحفظونها ويحضرونها للطلبة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ، ويراجعون ، ويكتبون حتى أسافلهم من العسكر)(٢) .

إن ما أعجب به عبد الرحمن الجبرتى فى العصر الحديث ... وفى مطلع

---

(١) ص ١٠٥ ظاهره التأثير والتأثر فى الأدب العربى د . على العريبى

(٢) ص ٢٤ جـ ٣ عجايب الآثار عبد الرحمن الجبرتى .

النهضة ... هو ما كان معمولا به فى المكتبة العربية القديمة (مكتبة القرويين) فقد جاء ما يثبت ذلك ...

(أنشأ السلطان أبو عنان — خزانة القرويين ، وأودعها الكثير من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان ، والأديان ، واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم - على اختلاف وتنويع ضروبها وأجناسها ، ووقفها ابتغاء الزلفى ... ورجاء ثواب الله الأوفى وعين لها قيما لضبطها ، ومناولة ما فيها، وتوصيلها لمن له رغبة ، وأجرى له على ذلك جراية مؤبدة ، تكرمة وعناية ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٥٠هـ(١) .

ولم تكن مشاركة المرأة فى الآداب والعلوم بدعاً فى الحياة ... وإنما هو جو من الجهالة ساد ثم زال ... ولم تكن يد النهضة الأوربية على العرب بل يد العرب على النهضة الاوربية ...

فقد شاركت فى العلم والأدب كثير من النساء ذات الطول فى العلم والمعرفة فقد ضرب المثل ... بولادة بنت المستكفى فى الشعر والأدب ... فى الأندلس وبعد غروب الأندلس ، فقد تصدت للدرس العالمة الأديبة ... خديجة بنت سحنون ... التى كانت تدرس فى حلقة جامع القيروان ، وأبوها يدرس فى أخرى .

ومهدية بنت الحسن بن غليون. التى أتقنت العربية ، ونبغت فى القريض ومن شعرها فى الحنين إلى أخيها الذى ارتحل إلى الشرق ، وطالت غيبته .

ليت شعرى ما الذى عانيته ... بعد طول الصوم مع نفى الوسن(٢)
مع غروب النفس عن أوطانها ... والتخلى عن حبيب وسكن

---

(١) عجائب الآثار للجبرتى ج ١ ص ٢٤

(٢) ص ٤٤ النقد الأدبى فى المغرب العربى د. عبده عبد العزيز قلقيلة .

يا شقيقا ليس فى وجدى به علة تمنعنى من أن أجن
وكما تبلى وجوه فى الثرى فكذا يبلى عليهن الحزن

فلا غرابة إذا فتحت جامعة الأزهر ، والجامعات الاسلامية فى الوطن العربى ... أبوابها للمرأة ... بعد أن ظلت موصدة ، فترة من الزمن ... فأعادت المرأة مجدها العلمى والأدبى ...

إن اللغة العربية حملت السمات الحضارية للعالم ... وذلك لغناها بمفرداتها وأساليبها ... وتفرعاتها ...

فمن غناها بالمفردات أنها جعلت لجزئيات النهار أسماء لا توجد فى أكثر اللغات الحية :

فالساعة الأولى ... ... الذرور
ثم ... ... البزوغ
ثم ... ... الضحى
ثم ... ... الغزالة
ثم ... ... الهاجرة
ثم ... ... الزوال
ثم ... ... العصر
ثم ... ... الأصيل
ثم ... ... الصبوب
ثم ... ... الحدود
ثم ... ... الغروب

ومن تصرفاتها الأفعال ...

كتفرع (الفعل — نظر) ... فيؤدى باللفظ ...

(رمق — ملح — حدج — توضح — رنا — استشف) وكلها بمعنى نظر وبرزت قدرتها فى (الايجاز — والاعجاز) ...

والتفوق فى (المترادفات والأضداد ..) ...

فضلا عن ذلك فلها ... حلاوة الإيقاع ...

... ... وجمال النغم بين الألفاظ

... ... ورصانة الجرس

نلمس ذلك فى واقعها المعاصر ... فليس بخاف على أحد ... أن الحماسة تعرف بالألفاظ المجلجلة ، المدوية ، التى تهب كالعاصفة ، ومن أراد المزيد... فعليه بالاطلاع على ألوان الموسيقى التى تحملها القصيدة العربية ... عند لقاء العدو ... فى الأدب العربى القديم والحديث كما أن الغزل يعرف بالموسيقى ذات التنغيم الهامس ... ويتمثل ذلك جيدا فى أدبنا المعاصر . الذى يحمل طابع الغزل العفيف .

لذا سار العالم على ضوئها عدة قرون ، لما حملت من فن ، وأدب ، ومعارف متعددة ...

كانت ولا تزال زاداً للإنسان فى أى مكان ... فقد غذى أدبنا العربى الآداب العالمية ... من إنسانيته ...

فقد احترم العرب (الإنسانية) وكرموها فى شخص الإنسان ، فعرفوا له حقوقه ...

هذه الحقوق التى جاءت بها الشريعة الإسلامية ، التى عرفت بالمحبة والمساواة ... وحماية الفرد ، من الجور ، والعسف ، والاستذلال وقد تمكنت هذه المثل ... من نفوس العرب ... فعاشوا بها ولها وطبقوها فى إخلاص منذ فجر التاريخ .

فرأينا أبناء الديانات الأخرى ، يسهمون فى بناء الحضارة العربية إسهام العرب أنفسهم .

فقد حمل الأدب هذه الرسالة، عبر القصور ، تحدوه الآية الكريمة (ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا(١)) .

والآية الكريمة :

(وجعلناكم شعوبا ، وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير(٢)) .

فروح الأمة ثاوية فى لسانها .

وفى أساليب تعبيرها ، وتصويرها .

وماسجلته من أقوال ، وآثار أدبية فى الشعر ، والنثر ، والحكم ، والعظات وماجاء به القرآن الكريم ... هو أعلى ذروة البيان العربى ... حيث الإعجاز الذى لا يبارى .

ولهذا كان من اليسير على من يبحث ذلك فى اللغة العربية ، وآدابها أن يدرك كثيرا من مظاهر الارتباط بين المنازع الإنسانية لحضارة العرب ، ومنازع لغتهم فى التصوير ... والتعبير ...

ومن هذا المنطلق قرر (المستشرق ماسينون) .

(بأن البعث الدولى للغة العربية ، عامل أساسى فى إشاعة السلام بين الأمم) ...

---

(١) الآية ٧٠ سورة الإسراء .

(٢) الآية ١٣ سورة الحجرات .

وفى الأخذ برأى هذا المستشرق قضاء على الحروب والدمار ، وعلى الجوع الذى يفتك الآن بأطفال الدول النامية فى العالم الثالث ... وعلى البطالة التى أخذت تزحف نحو بعض دول أوربا ...

إنها اللغة العربية ... لغة الحضارة ... التى تنشد خير الإنسان فى كل مكان والأدب العربى ... ذو السمات الحضارية ...

فحق لحافظ أن يقول :

أنا البحـــر فى أحشـائه الدر كامن
فهـــل سـاءلوا الغـواص عن صـــدفاتى

وحق لقسطاكى الحمصى أن يقول :

حروفها لمعان لا تطاولها فى حسنها بنت يونان ورومان

بقلم
د. على أحمد العريفى